محاضرة4: الحياة العلمية والفكرية في الدولة العباسية

أولا: أسباب النهضة العلمية

شهدت الحركة العلمية في العصر العباسي ازدهارا وتطورا في شتى العلوم ويرجع ذلك إلى اهتمام الخلفاء العباسيين بالعلم والعلماء وتشجيعهم على البحث والتأليف وحركة الترجمة وانتشارها على مجال واسع، فضلا عن ظهور عدد كبير من العلماء والأدباء والمفكرين؛ حيث قرب الخلفاء إليهم رجال العلم ومن أبرزهم هارون الرشيد الذي اشتهر عنه مجالسته للعلماء والأدباء والكتاب، وأيضا المأمون الذي كان من أكثر الخلفاء اهتماما وعطاءا للعلم والعلماء، حيث أمد بيت الحكمة ببغداد بمختلف أنواع الكتب وقام بتجهيز أماكن خاصة للناسخين لنسخ الكتب وعين موظفا عرف باسم صاحب بيت الحكمة.

وكان يجلس بنفسه في حلقات العلم للمناظرة بين العلماء ويتقدم بغزير فكره وسعة إطلاعه لإزالة الخلاف بينهم؛ واهتم خاصة بالترجمة حيث ترجمت على عهده العديد من الكتب من اللغات الأخرى كاليونانية والفارسية إلى اللغة العربية ، وما يلاحظ على هذه الكتب أنها لم تكن من صنف واحد بل تنوعت بين التاريخي والأدبي والديني منها على سبيل المثال: كتاب الأدب الكبير والأدب الصغير وكتاب كليلة ودمنة وهي مما نقله عبد الله بن المقفع من الفارسية إلى العربية، أمّا في التاريخ والسير فنقلت العديد من المؤلفات أيضا من الفارسية إلى العربية ككتاب سير ملوك الفرس، وكتاب ملوك بني ساسان وغيرها.

وقد انعكست مظاهر النهضة العلمية بشكل واضح على إنشاء العديد من المدارس والمؤسسات التي تعنى بالثقافة كدور العلم ونذكر من أهمها:

1/المدارس:

إذ حرص الخلفاء العباسيون على تشييد وإقامة المؤسسات التعليمية وكانت تتصدرها في ذلك المدارس ومن أشهرها المدرسة المستنصرية: وهي أقدم جامعة في البلاد وتقع في الجهة الشرقية من بغداد، شيدها الخليفة العباسي المستنصر بالله وبدأ بإنشائها سنة631هـ وأنفق على بنائها 700 ألف دينار، وقد تنوعت بها أساليب الدراسة وبرامجها كما استقطبت العلماء والمفكرين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

ومن المدارس أيضا خلال تلك الحقبة نجد المدرسة النظامية: شيدها الوزير السلجوقي نظام الملك، والذي عرف بحبه للعلم وتشجيعه للعلماء ومن أشهر المدرسين بها والذين كانت تتحلق حولهم حلقات البحث والمدارسة الإمام الغزالي، كما زارها أيضا الرحالة ابن جبير والذي وصفها بأنها من أعظم المدارس التي شُيّدت في بغداد لاتساعها؛ إلى جانب العديد من المدارس والصروح العلمية الأخرى كمدرسة سابور والمدرسة المرجانية.

2/بيوت الحكمة:

هي مؤسسات تعليمية تشبه المعاهد في عصرنا ويعود تاريخ تأسيس أول بيت حكمة إلى عهد الخليفة العباسي"هارون الرشيد"، إذ كانت تلك البيوت تضم مكتبات كبيرة أسهمت في تزويد طلاب العلم بمختلف المصنفات المعرفية ولعبت دورا في الارتقاء بأفكارهم، حيث عمل الخلفاء العباسيون على تزويد بيوت الحكمة بمختلف الكتب وأوعية الفكر والثقافة من مخطوطات وغيرها، وعلى إثرها نشطت حركة الترجمة والتأليف فكثرت الكتب والمكتبات والاهتمام بعملية النسخ، ومن أشهرها: مكتبة مؤيد الدين بن العلقمي(وزير المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ببغداد) ومكتبة نوح بن نصر الساماني التي كانت تضم عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب.

3/المجالس العلمية:

وهي حلقات للمباحثة والدرس كانت تعقد في بيوت العلماء لمناقشة مختلف القضايا والمسائل العلمية والفكرية، كما ظهرت في مجالس الخلفاء الذين خصصوا أماكن وحجرات في قصورهم لعقد مثل هذه المجالس ليتناقشوا ويتبادلوا الأفكار في مختلف الموضوعات، بل إنّ كثيرا من الخلفاء العباسيين قد شاركوا فيها وكانوا يبدون رأيهم في مختلف المسائل العلمية والفكرية التي كانت تُطرح أنذاك كحال الخليفة العباسي هارون الرشيد وابنه المأمون، إذ كان يجتمع في مجلسهما الكثير من الفقهاء والأدباء والشعراء والفلاسفة قادمين من جهات متعددة من العالم الإسلامي، حيث توفر لهم أماكن الإقامة والسكن كما تقدم لهم المنح والعطايا لتشجيعهم على التأليف والبحث والذي كانت له انعكاسات إيجابية حيث زاد عدد العلماء المتخصصين في كل علم وفن، كما كان يقدم الطعام والإيواء أيضا للطلبة والغرباء وهو ما جعل بغداد وغيرها من الحواضر العلمية في ذلك الزمن محور استقطاب تُشد إليه الرحال من كل أصقاع العالم الإسلامي مشرقا وغربا وأندلسا.

ثانيا: مظاهر الحركة العلمية في العهد العباسي

لقد سعت الدولة العباسية لتطوير الحركة العلمية من خلال الاهتمام بالعلماء ومؤسسات التعليم، وهو ما ظهرت آثاره ونتائجه في العدد الكبير من المؤلفات والمصنفات في مجالات شتى من العلوم والمعارف التي أسهمت في نشر العلم العربي والثقافة الإسلامية في مختلف الآفاق والتي صُنفت كالتالي:

1/ العلوم النقلية:

أ/علم القراءات:

هو علم يختص بوضع مقاييس لقراءة القرآن وتلاوته قراءة صحيحة وذلك بسبب اختلاف اللهجات ولضبط النطق حتى لا يقع اللسان في اللحن، وقد اشتهر في عهد الخلافة العباسية كوكبة من القراء المجيدين كان من

أشهرهم: عبد الله بن أحمد، المعروف بابن الخشاب البغدادي حيث حفظ القرآن الكريم وأجاد تلاوته وترتيله بالقراءات المختلفة كما اشتهر بتبحره في علمي الفرائض والتفسير.

ب/علم التفسير:

وهو علم يتعلق بدراسة أسباب نزول الآيات القرآنية حتى يسهل إدراك معانيها، وعاصر ظهوره نزول الوحي؛ ومن أشهر مفسري العصر العباسي نجد: أبو يونس عبد السلام القزويني،ت483هـ، الذي فسر القرآن تفسيرا مطولا حتى أن سورة الفاتحة وحدها شغل تفسيرها سبع مجلدات.

ومثله في ذلك أيضا الشريف العلوي ،ت436هـ المعروف بالمهدي المرتضي، له كتاب مشهور اسمه الأمالي فسر فيه الآيات القرآنية تفسيرا صحيحا وأجيز على ذلك.

ج/علم الفقه:

ارتبط ظهوره بنشاط حركة الاجتهاد في استنباط الأحكام الفقهية وعلى إثر ذلك برز عدد معتبر في العصر العباسي من أعلام الفقه الذين كونوا لهم مذاهب؛ إلاّ أنّ المذاهب الأكثر شيوعا أنذاك هي المذاهب الأربعة (المالكية-الشافعية-الحنبلية-الحنفية)، ومن أبرز الفقهاء الذين اشتهروا في هذا العصر داود الظاهري، وكانت طريقته في استنباط الأحكام الشرعية قائمة على الأخذ بظاهر نص القرآن والسنة وعدم قبول غيرهما كالرأي والقياس لذلك سمي بداود الظاهري كما عرف أتباعه باسم الظاهرية.

د/ العلوم اللغوية:

وهي علوم ارتبطت بمجال الأدب والشعر وفنون الخطابة والنثر؛ وقد شهدت تنوعا وإقبالا من طرف المهتمين بدراسة العلوم اللغوية والنحوية وخاصة على يد علماء البصرة والكوفة، حيث سعى عدد من هؤلاء العلماء إلى جمع ألفاظ اللغة العربية وأشعارها من منابعها ودونوها خاصة بعد أن فشا اللحن لاحتكاكهم بالأعاجم، ووضعوا قواعد نحوية لضبط اللغة العربية فابتكروا النقط والشكل على الحروف، كما اشتغلوا أيضا بعلم العروض وأوزان الشعر وبحوره، ومن أشهر الرواد في ذلك: العالم الخليل بن أحمد الفراهيدي، ومن الشعراء: أبونواس، البحتري، أبو العلاء المعري وآخرون.

2/العلوم العقلية:

هي العلوم التي تخضع للفرضيات والتجريب وقد ضمت ضروبا وصنوفا معرفية شتى منها:علم الطب والكيمياء والصيدلة والرياضيات والفلسفة والفلك، وهذه العلوم ارتبطت بعقل الإنسان وتفكيره لما فيها من تجارب علمية ومسائل حسابية ومعلومات دقيقة، ومن نماذج العلماء الذين اشتهروا وبزغ نجمهم في مثل هذه العلوم في العصر العباسي نجد:محمد بن موسى الخوارزمي،ت232هـ/846م والذي ألف رسالة مشهورة في الجبر والمقابلة والحساب؛ وهو

من العلماء الذين لقوا الرعاية والتشجيع من الخليفة العباسي المأمون وكان من العلماء الذين اختاروا الانقطاع عن الناس للعمل في المكتبة الشهيرة بيت الحكمة في بغداد ، حيث اتسع منتوجه العلمي واهتم بالتأليف والبحث.

ومن الشخصيات التي اشتهرت أيضا نجد ثابت بن قره الحراني: عاش زمن الخليفة المعتضد وكان بارعا في علوم عدة كالمنطق والحساب والهندسة والتنجيم؛ ولا يقل عنه شأنا جابر بن حيان الذي كان عالما متقدما ومتفوقا في العلوم الطبيعية بارعا في مجال صناعة الكيمياء، وله في ذلك تواليف كثيرة ومصنفات مشهورة ويعود إليه الفضل في اكتشاف عدد من المركبات الكيميائية.

أمّا في مجال العلوم الطبية فقد أظهر الخلفاء العباسيون اهتماما بنشر الأفكار والثقافة الطبية؛ وذلك بتشجيع العلماء على البحث والتجريب للوصول إلى طرق علاج متطورة، لهذا حرصوا على إقامة البيمارستانات، وكان من أشهرها البيمارستان المقتدري الذي بني سنة 306هـ/ 918م، وكان من أشهر الأطباء الذين ذاع صيتهم الطبيب يحي بن ماسويه،ت243هـ في أيام الخليفة المعتصم العباسي واستمر أثره على عهد ولديه الواثق والمتوكل؛ إضافة إلى الطبيب حنين بن اسحاق،ت260هـ والذي صنف كتبا كثيرة في المجال الطبي أهمها كتاب في الرمد عرف ب"العشر مقالات في العين"، وكتاب"السموم والترياق".

رسم لطلاب في مكتبة بيت الحكمة مستوحاة من مقامات الحريري ببغداد1237م.

المـــــــــــراجع:

-شابحة حمرون، أثر الترجمة في الحركة الثقافية والعلميّة في العهدين الأموي والعباسي إلى أيام المأمون، مجلة الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، العدد8، 2009،ص،ص208-214.

-محمد عيساوي، جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية خلال عهد الخليفة العباسي المأمون(198-218هـ/ 813-833م)، المجلة التاريخية الجزائرية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، العدد10، 2018،ص،ص31-33.

-يونج ولاثام وسيرجنت، الدين والتعليم والعلم في العصر العباسي، ترجمة وتعليق قاسم عبده، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016.

-آمنة بنت حسين جلال، أثر الصلات العلمية بين الدولة الأيوبية والخلافة العباسية في ازدهار الحياة الثقافية في المجتمع الإسلامي، مجلة الدرعية، السنة14، العددان53-54، 2012،ص،ص271- 302.